# سليمان العيسى والعروبة

**د. ملكة أبيض**(*)

**-١-**

في خِضَمّ الصراع الواسع الذي دار في القرن الماضي بين اتجاهات مختلفة لإنقاذ الوطن العربي من مشكلتَيْهِ الرئيستين المتمثلتين في الاستعمار والتخلف.

في خضمّ ذاك الصراع، تناقل الألوفُ من أبناء الأمة العربية كتابًا بعنوان: «العروبةُ أولاً»، ناقش فيه المفكر والمربي الكبير ساطع الحصري هذه الاتجاهات، وفيها: الشيوعية، والإقليمية الواسعة نسبيًّا، والقُطرية، والمحلّية الضيقة؛ وردَّ بوجهٍ خاص على فكرة أطلقها الأديب الكبير الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»؛ تلك الفكرة التي تمثَّلت في ربط الثقافة المصرية بالثقافتين اليونانية والرومانية، على غرار ما فعلت النهضة الأوربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ ذلك أن النهضة عادت إلى تَيْنِكَ الثقافتين القديمتين بصفتهما جذورًا مضيئة للثقافة الأوربية، وتخلَّصت بذلك من العصور الوسطى المظلمة التي خَيَّمت على أوربا أكثر من عشرة قرون.

وسرعانَ ما أصبح عنوان كتاب ساطع الحصري «العروبة أولاً» شعارًا له وزن كبير في الساحة العربية.

في ذلك الحين. وفي شمال سورية: في لواء الإسكندرونة بالتحديد، حيث كانت الدول العظمى تتآمر لاقتطاع تلك البقعة الغالية من الوطن وتسليمها

---

(*) باحثة مختصة في أدب الأطفال.

إلى تركيا، رفع المواطنون العرب شعار العروبة لمقاومة هذه المؤامرة ومثيلاتها، وتنبيه إخوانهم في جميع أقطار الوطن العربي إلى خطورتها.

كان على رأس المقاومة العربية المفكِّر والمناضل الكبير زكي الأرسوزي،

وكان شاعرها طفلاً لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر، اسمه سليمان العيسى. لا يذكر الشاعر القصائد الأولى التي ندَّد فيها بالمؤامرة، وحثَّ مواطنيه على مقاومتها، ولكننا نعرف قصائده التي كتبها بعد هجرته، وتحدَّث فيها عن سلخ اللواء، بعد أن أصبح واقعًا، وعن المآسي الأخرى التي توالت على الوطن العربي بعد ذلك.

هذه القصائد تبدأ مع أول ديوان دفعه للطباعة عام ١٩٥٢ وهو ديوان «مع الفجر».

وحين تجمَّع لدى الشاعر عدد من الدواوين أصدرها في ثلاثة مجلدات، في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، بعنوان: شعر سليمان العيسى، ثم في أربعة مجلدات عام ١٩٩٥ بعنوان: الأعمال الشعرية.

وقد تصدَّرت المجموعتين مقدمةٌ مطوَّلة، عَرَّف فيها الشاعر نفسه قائلاً:

«أنا خليَّةٌ في جسد
تبحث عن ملايين الخلايا من أخواتها،
وتكافح بلا هَوادة..
لكي يتحركَ الجسد، وتتفتح الحياة.

* * *

وجسدي هو أمتي..
هذه الأمة العربية العظيمة،

المنكوبةُ، الممزقة،
التي مدت جسور الحضارة بيني وبين العالم،
منذ وُجد العالم، وكانت الحضارات.

* * *

من هنا .. تبدأ قصة الشعر في حياتي
وهنا .. ستنتهي».

وديوان الشاعر كله ليس إلاّ قصيدة طويلة تغنّي الوحدة العربية، أو الاتحاد العربي، فالاسم هنا لا يهم، كما يقول. وحين تسأل الشاعر: لماذا يكتب للوحدة، أو للاتحاد، يقول:

«أنا إنسان عربي،
رأى نفسه يُقْتَلع من داره،
من تحت شجرة التوت في قريته،
يُحرَمُ لغتَه وتراثَه،
وأرضَه وقريتَه فجأةً،
ويُلْقى به في الغربة طفلاً مشرَّدًا
منذُ أكثر من ثلاثين عامًا..
لماذا؟
الأطفال لا يعرفون لماذا يُشَرَّدون..؟»

على أنه لم يتأخر في الوصول إلى الموقف المناسب للخلاص من هذا المصير الذي دُفع إليه، وتُدفع إليه الملايين من أبناء أمته باستمرار؛ يقول في ذلك:

«ونظرتُ حولي وأنا طفل صغير..

كيف أدافع عن نفسي؟
وماذا أستطيع أن أفعل..
ويفعل أمثالي..؟
ووجدتُ الطريق..
الطريقُ حُلُمٌ ضخم، سأحملُه ورفاقي..
سنقاتل في سبيله حتى النَّفَس الأخير..
الحُلُم الضخم..
الذي عشتُ من أجله، ومازلتُ أعيش،
هو أن تكون لي دولة عربية كبرى،
قادرة على أن تحميَ أطفالي،
فلا يقتلُعهم من يشاء، ساعةَ يشاء، من بيوتهم..
لن تكون لي كرامةُ إنسان..
لن تكونَ لك كرامةُ إنسان..
إلا إذا كانت لنا دولة عربية كبرى
تحمينا.. تحمي أطفالنا...»

وهنا لا بد أن نسأل: ما العروبةُ التي يقاتل سليمان العيسى من أجلها؟

في المقدمة نفسها يوضِّح سليمان العيسى ذلك بقوله:

«كنا نُلَقَّن – وما نزال – أن العروبة هي البداوة،
هي القبيلة، هي البَسوس، وداحس والغبراء...
إلى آخر هذه «المعزوفة» القاصرة، المغرِضة، في آن.
العروبة التي غَنَّيتُها – وما زلت –

نسيج حضاري هائل، ضاربٌ في أغوار التاريخ،
تشابكت فيه ملايينُ الأصول والفروع،
لِتُعطيَ الإنسانَ أكرمَ ما أعطاه شعبٌ على وجه الأرض،

وأَبْعَـدُ نحـنُ مـن عَـبْسٍ ومـن مُـضَرٍ.. نَعَـمْ أَبْعَـدْ
حَمُـورابي وهـانِي بَعْـلُ بعـضُ عطائنـا الأَخلَـدْ
لنـا بلقـيسُ، والأهـرامُ، والبَـرْدِيُّ والمعبَـدْ
ومـن زيتوننـا عِيـسى ومـن صـحرائنا أَحمـدْ
ومنَّـا النـاسُ - يعرفُهـا الجميـعُ - تعَلَّمـوا أَبجَـدْ

إنه مفهوم موسَّع زمانًا ومكانًا..

فهو يشمل جميع الحضارات التي قامت في المنطقة العربية في عصور سحيقة، واتخذت أسماءً وأشكالاً متعددة، لأنه يرى أنها تعود إلى جذورٍ واحدة، تطورت وتجددت عبر التاريخ، ولذلك يُطلق عليها اسم: النسيج الحضاري.

كما يشمل المفهوم معظم الأمكنة التي وصلت إليها الثقافة العربية - الإسلامية في أوج ازدهارها، مما يجعل منجزاتها قبل الإسلام جزءًا لا يتجزأ من التراث العربي الحاضر.

ومن تلك المنجزات بالطبع، ثقافات المغرب، ومصر، وبلاد الشام، وما بين النهرين.

وحين يقول الشاعر:

«رسَتْ في تُربة الماضي جذوري
وكلُّ ظليلةٍ في الترب تُرسي

ولكني لكي أنمو وأَحيا

أنا ابْن غدٍ، ولستُ ابْنًا لأَمسِ».

فإنه يؤكِّد أن العروبة مستمرةٌ في تطورها، وأن غدها مرتبط بانفتاحها على المنجزات الإنسانية، وتمثُّلِها ضمن نسيجها الخاص.

هكذا تقف العروبة على قدميها، وتتمكَّن من صنع منجزاتها الخاصة:

«أَنْ تعتصرَ المتنبي ولوركا

والمعريّ وغوته..

ثم تقف على قدميكَ

وترى الدنيا بعينيكَ

تلك هي الحداثةُ والمعاصرة.

بكلمة أدقّ: تلك هي الأصالة فيما أرى».

الأصالةُ تطوردائم..

كانت كذلك في الماضي،

وستكون كذلك في المستقبل..

وإلاَّ.. فَلَنْ يكون هناك مستقبل على الإطلاق:

«ولستُ بساكنٍ بُرجًا قديمًا

بنته يدي.. ولو نَطحَ السحابا

ألوذُ به.. وأتركه ورائي

إذا ما آلَ قيدًا أو حجابا»

* * *

«وأرفضُ أَنَّ شيئًا قد تَنَاهى

وأُومنُ أنني أبدًا جديدُ

وأُبدعُ كلَّ ثانيةٍ وجودي
فلا خَتْمٌ هناكَ ولا جمودُ»

– ٢ –

القصائد التي جمعها الشاعر في ديوان «أنا والعروبة» تدور في إطار هذا المفهوم الموسَّع للعروبة، ذلك أنها تضم الماضي، والحاضر، وتطلُّعات المستقبل.

فالعروبة – الماضي، كما رأينا، تهم الشاعر، كما تهمه العروبة – الحاضر، لأن المستقبل يُصنع منهما كليهما. وعروبة الماضي، تمثِّل في جزء كبير من هذا الماضي، حقبة ازدهار وتألق: حمورابي، وهاني بعل، وبلقيس، وزنوبيا، والرسالات السماوية. ونظرة الشاعر إليها نظرة انتقائية، تصطفي عناصرها الحية التي قادت إلى تفتُّح ثقافات، وتشكيل حضارات... وتهمل العناصر الجامدة أو السيئة التي أدَّت بها تدريجيًّا إلى الانحطاط.

من هذه العناصر الحية نذكر: وصية أبي بكر على جدران دمشق:

لا تَجْرَحــوا بــسيوفكم حُلُمًـا.. علـى غُـصُنٍ وريـفِ
لا تُقْلِقــوا أُنــشودةً رقـدَتْ علـى وَتَـرٍ شـفيفِ
لا تَقْطَعــوا خَــضْراءَ، لا يُـنْضَ السنانُ على ضـعيفِ
لا تُزْعجــوا شــيخًا، ولا طفــلاً.. وتُمطِـرُ كـالحفيفِ
كــالنورِ، كالحــبِّ، الوصـيَّةُ في المئــينَ، وفي الألــوفِ
ويــسيرُ نَهــرُ النــور يــا أَعلامَنــا في الأرضِ طُــوفي

وفيما يتعلق بتفتُّح الثقافة العربية — الإسلامية، وتطوُّر مكوِّناتها الأساسية: اللغة والأدب.. يفرد الشاعر ديوانًا خاصًا بعنوان: «أُغنية في جزيرة السندباد»، يتصور فيه لقاءً له مع أعلام اللغة والأدب: الخليل بن أحمد، الجاحظ،

الأصمعي، أبي نواس.. إلخ، نقتطف منه هذه المقطوعة، على لسان الخليل بن أحمد:

سأَشُدُّ ألحانَ العصورِ الغابراتِ على ربابي
شأشدُّها في خيمتي السمراءْ..
وتَظَلُّ نهرَ ضياءْ
أَسقي بها الأجيالَ، أخلَعُ فوقها بُردَ الشبابِ

ويعلّق عليه الشاعر:

وتَحتشدُ السواقي.. كلُّ ساجعةٍ وغِرِّيدةْ
وتسكُبُ في «العَروضِ» غناءَها،
فالدهرُ أُنشودَةْ..
ويمضي المبدِعُ العملاقْ
يَرَاعٌ قادرٌ خَلاَّقْ
يلُمُّ شواردَ الفُصحى...

وشوارد الفصحى هنا إشارة إلى كتاب «العين»، أول معجم في العربية وضعه الخليل بن أحمد.

ثم يورد هذه الأبيات على لسان الراوية الأصمعي:

آمنتُ بالفن.. مصابيحُهُ
في كل فجرٍ ثورةٌ واتِّقادْ
غَنَّيتُ ما يَبْقَى.. وما هَزَّني
من كل ما استظهرتُ إلا الجيادْ..

وحين يقول له الشاعر إنه يودُّ أن يُشعل التاريخ، يجيبُ الأصمعي:

دَرْبٌ يَطُولْ..
حُلْمٌ يَهُونُ العمرُ من أَجلِهِ
أَن يُشْعَلَ التاريخُ..
حُلْمٌ يَهُولْ
عِظامُنا باردةٌ في الثرى
فلا تُطيلوا المكْثَ فوق الطلولْ

ولماذا لا أذكر بهذه المناسبة قصيدة «الطريق والمعري» التي يمجِّد الشاعر فيها تمرُّد شاعر المعرة، مشيرًا إلى أن أوجاع الوطن العربي في عهده لا تُقاس بما نعانيه في عصرنا هذا.

يقول سليمان العيسى في «شاعر بين الجدران»:

«شَيْخَ الخلودِ.. تحيةً عَجلى، وأنداءً، وطيبا!
هذي جراحُكَ، لم تَزلْ وطنًا، وتاريخًا سليبا
هذا الثرى العربي.. لم يَبْرَحْ - وسَلْ دمنا - خضيبا
زمجرتَ في وجهِ الفسادِ ولم تَرَ الخَطْبَ العصيبا
لم تعرفِ «المستعمرَ» السفاحَ في وطني نُيوبا
ما كنتَ تُصْدَم «بالحواجزِ» حيثُ أَزمعتَ الركوبا
كنتَ الشروقَ، متى أردتَ، وكنتَ في وطني الغروبا
والنيلُ مِثْلُ الرافدَيْنِ، فلا حدودَ، ولا شعوبا
زمجرتَ.. لم تشهَدْ «شمالاً» يُستَباحُ، ولا «جنوبا»
شعبًا بِرُمَّتهِ يُباد، ويستغيثُ.. ولا مُجيبا»

أو قصيدة «باحث عن امرئ القيس» التي كتبها في الطائرة، فوق حَضْرموت، والتي يشكو فيها من الفارق الكبير بين أيامه وأيام الشاعر الضلِّيل؟ يقول فيها:

«.. إِني أَبحثُ عنكْ
أينَ حوافرُ مُهرِكَ في بيداءِ العَرَبِ،
وأينَ صهيلُ غنائِكَ أنتْ؟
لم أَلمحْ أثرًا للفارسْ
لم أُبصرْ طيفًا للشاعرْ
لا عجَبَ.. الأطلالُ دواثرْ

* * *

لا تسأَلْني..
أَرضي، أرضُكَ،
أرضُ الغَزَلِ، الحُبِّ، مُخَيَّمْ
كلُّ الغُدرانِ الشعرية جَفَّتْ
كلُّ الأحلامِ الورديةِ جَفَّتْ...

* * *

كنتَ طليقًا.. أنتَ ومُهرِكَ..
لا تسأَلْني.. إِنَّا أَسْرى
وعلى خَشَّاتِ القيدِ، أجرُّ قيودي
أبحثُ عنكْ...»

ولا بدَّ لي هذا السياق من أَن أقتطفَ بعض الأبيات من قصيدة «صباحٌ في جنة العريف» التي كتبها بعد زيارة مؤثّرة للأندلس، ولقصر الحمراء بالذات، والطواف في حدائقه الرائعة «جنة العريف»، التي أصبح اسمها بالإسبانية: «خناناريف». يقول الشاعر:

«حَنانا ريفْ..»
لا.. لا..
هذي «جنةُ العريف»..
أقولُ لجارتي الحسناءِ[1]، جاءت
تطوفُ.. كما أطوفُ هنا
وتسأَلُني: أَعِدْ لي اسْمَها العربيّْ
سأحفظُ اسمَها العربيّْ
وتُذْهِلُها روائعُنا..
أقولُ لها: أجَلْ، هذي روائعُنا
تركناها لمن يأتي كتابًا
من الأمجادْ..
تمرُّ به قوافلُ ليس تُحصى
من الروَّادْ..
وتَقْرؤنا.. على الحمراءْ
قصائدَ لم تَزلْ صدَّاحةً
في كل زركشةٍ.. من الحمراءْ»

(١) كانت سائحة ألمانيّة.

هذا بعضُ ما تحدَّث به الشاعر سليمان العيسى عن الماضي البعيد نسبيًّا.. فماذا عن الحاضر، أو الماضي القريب؟

إن الماضي القريب يُراوح بين الألم والأمل، والانكسارات والانتصارات، وكل من هذه الأحداث يلقى صداه في ديوان: «أنا والعروبة».

سَلْخ اللواء (لواء إسكندرون) ١٩٣٨، نكبة فلسطين ١٩٤٨، ثورة الجزائر ١٩٥٤، الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، الصراع الدموي في العراق بشأن الانضمام إلى الوحدة، مأساة ١٩٦٧، المقاومة الفلسطينية، عمر المختار وثورة ليبيا، حرب تشرين التحريرية ١٩٧٣، الغزو الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢، الوحدة اليمنية ١٩٩٠، الانتفاضة، الغزو الأمريكي للعراق، الغزو الأمريكي الثاني للعراق، والإسرائيلي الثاني للبنان..

خط منحنٍ من الأَحْداثِ، يصعد ويهبط، يفتح نافذةً للأمل، ثم يعود فيقفل الأبواب.

لماذا لا نتوقف عند بعض المقتطَفات؟

في غمرة الأفراح بالوحدة بين سورية ومصر، يقول الشاعر:

«أَنَا في زَحْمةِ الحناجرِ أنسابُ جنونًا حينًا.. وحينًا ذُهولا
يا ليالي الضَّياع، والقيدِ زولي نحن باقون وحدةً لن تزولا
وحدةً تَفْجُرُ الينابيعَ في فراتًا يسقي العطاشَ ونيلا
وحدةً تجمعُ المشرَّدَ بالأهلِ عناقًا بعد الفراقِ طويلا
وتلُمُّ المعذَّبين بأرضي موجةً لن تضلَّ بعدُ السبيلا»

وعند إعلان الوحدة اليمنية يهتف الشاعر:

إمْلأْ بها التاريخَ والزَّمَنا وُئِدَتْ هناك لكي تعيشَ هنا

* * *

هي وحدَها القَدَمُ التي بقيت لنعـــودَ أحيـــاءً.. تُحَرِّكنـــا
هـي وحـدها خَـشَبُ النجـاةِ يَعْلَـقْ إلى شـط النجـاةِ دَنَـا
هـــي وحـــدها الـــسَّحَرُ هـــي وحـــدَها القَـــدَرُ
هـي وحـدها يـا مـن يُقاتلهـا دِرعُ الأمـانِ، وحولنـا الخَطَـرُ»

ولا أريد الوقوف عند المآسي والنكبات، ولكني سأشير إلى مصدر الأمل عند الشاعر الذي يتجسد في الثورات والمقاومة حين ظهرت في الوطن العربي.

فقد أفرد ديوانًا خاصًا لثورة الجزائر بعنوان: «صلاة لأرض الثورة»، كما انتشرت له قصائد عديدة حول المقاومة، وانتفاضة أطفال الحجارة في ديوان فلسطين، وقصائد أخرى حول المقاومة في ديوان لبنان، سأُشير منها إلى قصيدة «شفق من الجنوب»، وأقتطف منها المقطع التالي:

«يَلُفُّني السوادْ
يَلُفُّني الرَّمادْ
يُخْطِئني الشروقْ
يُخْطِئني الغروبْ
أَتيهُ بين الخَطْوِ والخَطْوِ
وبين الجُرح والجرحِ،
سُهوبٌ.. دونَها سُهوبْ
أَمدُّ للشعرِ يدي
لجمرةٍ لم تشتعِلْ ألوبْ
أعودُ من جُثَّةِ حُلْمي

تَمَّحي في ناظري الدروبْ
وفي جحيم الهُوَّةِ العمياءْ
وحيثُ صار الكفرُ بالعروبةِ انتماءْ
يَلوحُ لي شَفَقْ
يزلزِل الغَسَقْ
يَرُدُّني شمسًا بلا غروبْ
يَلُوحُ لي الجنوبْ..»

* * *

وإذا بدا لك أن تتساءل كيف تنبثق الثورة؟
وممن تتكون المقاومة؟
فإن ديوان «أنا والعروبة» لديه الجواب.
إنه يُشير في عشرات الأبيات إلى الشعب، بجماهيره الكادحة التي عانت الجوع، والحرمان، والقهر، خلال فترات الانحطاط والاستعمار والاستغلال.
إن هذه الملايين المحرومة هي التي تقاوم، هي التي تكافح للخلاص.
استمع إليه يقول في قصيدة عنوانها «الطريق»:
هذي الملايينُ.. عبيدُ العصورْ
في قريتي منها.. بقايا قبورْ
رافقتُها طفلاً..
أجرُّ العذابْ
قصائدًا.. أُحرق فيها الضبابْ
قصيدتي الكُبرى..

غضونُ الألَمْ
في وجه فلاَّحٍ سقاني النَّغَمْ
وعاملٍ.. كَلَّمني بالجراحْ
وأَطْعمَ القيثارَ جمرَ الكفاحْ
وقال لي: نحنُ رفاقُ السلاحْ.

هذي الملايين هي التي ستحقق الغد المرتجى، بكفاحها وثورتها على الاحتلال والظلم والطغيان. ونضالُها لا بد من أن يُوصِل إلى شكل من أشكال الوحدة العربية، لأن أهدافها لا يمكن أن تتحقق من دونها.

* * *

بقيت هناك نقطة هامة في النضال لتحقيق الوحدة العربية، وهي المحافظة على الوحدة الثقافية، وأهم عناصرها اللغة العربية.

وديوان «أنا والعروبة» يُلحُّ على اللغة العربية في أكثر من قصيدة، وأود أن أقفَ هنا عند اثنتين منها، وأقتطفَ بعض الأبيات الأولى:

قصيدة «المنفى المرير» التي خاطب بها الشاعر الجزائري مالك حداد، الذي كان يردد بألم: اللغة الفرنسية هي منفاي الذي قُدِّر لي أن أعيش فيه. ويقول له سليمان العيسى:

يا صديقي..
أنا أدري أيُّ مأساةٍ رهيبَةْ
غَرَّبتْ لحنكَ عني.. فهو آهاتٌ خَضيبَةْ
أيُّها النسرُ المهيضُ
إنه المنفى البغيضُ

بيننا سورٌ من الصمتِ رهيبُ
إنه الحرفُ الغريبُ
كلَّما هَمَّ جناحاكَ بضربَةْ
وقفَتْ صخرةُ غُرْبَةْ
فإذا اللفظةُ زفرَةْ
تُحرِق الشاعرَ في الصمتِ وشِعرَهْ.

والمقطوعة الثانية التي يكتبها على لسان اللغة العربية، وعنوانُها لغتنا العربية تقول:

إذا تَقطَّعت الأَرحامُ بينكُمُ
إذا تراكمتِ الأسوارُ والحُجُبُ
إذا ٱلتَمستم من الدنيا هُوِيَّتَكُمْ
وضاع خلفَ تخوم الغُربةِ النَّسَبُ
فلا تخافوا..
لكم صدرٌ يضمُّكُمُ
ستلتقونَ على صدري.. أَنَا العَرَبُ